نظرات في النفس والحياة

— ٢٨ —

نظرات السير أرثر هلبس

للأستاذ ع. م. ش.

إن بعض نظرات السير أرثر هلبس تذكرنا قول جوتا : —

« إن الصواب المجهول إذا عرفه الانسان كانت له فائدة الأمر المتوقع وبغتة الأمر المعروف النسي ». كما أن بعضها يذكرنا قول جوتا أيضاً : —

« إن الناس يزهدون في الحق لأنه معروف متداول مألوف والألفة تبعث الملل وهم لا يستطيعون تطبيقه وانجاحه وتحقيقه فهو يشق عليهم في العمل، وان كان لا يشق عليهم في الفكر ».

ولقد كان منذ عهد الصغر كثير القراءة والاطلاع وكان يجمع بينهما وبين التفكير فيما يقرأ، فنشأ عن ذلك انه نشر نظراته في عهد الشباب فدلت على حكمة الكهول وعلى إصالة الفكر، وكان من أصدقائه أرثر هالام وتنيسون وغيرهما من الكتاب والشعراء. وكان مثقفاً ثقافة عامة، فكان فصيحاً وكان مؤرخاً وكان كاتباً أديباً وكان سياسياً من الأحرار المعتدلين، وكان ملماً باللغات وآدابها، وقد ذكره رسكين في بعض كتبه وقرنه إلى أفلاطون وكارليل وقال عنه إنه كان ذا بصيرة بالأمور واصالة في الرأي.

وقد نسي الناس قصصه وكتبه التاريخية ولم يبق غير نظراته وأفكاره ورسائله. وهذه نظراته ندع القارىء يحكم عليها أو لها. وهو سيجد فيها فكراً عميقاً وبصيرة بالنفس الانسانية، كما سيجد فيها طلاوة الخيال الذي يوضح الحقائق ويشرحها، وقد تولى منصباً في المجلس الخاص في عهد الملكة فكتوريا، وكان من المقربين لديها.

وفيما يلي بعض نظراته مع قليل من التعقيب : —

(١) إذا أساء الينا مسيء وكانت لنا سلطة وقدرة عليه وتحكم فيه فاننا قد نشعر بالغضب ونظهره أكثر من شعورنا به واظهاره إذا لم تكن لنا تلك القدرة على المسيء، وهذا

من طغيان الطبيعة البشرية التي قد تسوّل على المرء تحمل الاساءة ممن لا سلطة له عليه، ثم يقتص لنفسه ممن له سلطة عليه، باظهار الغضب والاستسلام له والتمادي فيه .

(٢) كثيراً ما ننسى أن من الناس ناساً يلبسون لنفوسهم كمن يلبس ثيابه مقلوبة، فيظهر الوجه الأقل حسناً ويخفي الوجه الزاهي الكثير الحسن .

(٣) من الخطأ أن يقال إن المرء اذا تعود معرفة عيوب معاشريه ونقائصهم لا يأبه لها ولا يحس بها، فالواقع هو أننا نزداد شعوراً بها حتى أننا كثيراً ما نحسب أننا نجدها في حالات لا توجد فيها ولا ترى ، وذلك من سوء الظن الذي يلازمنا في معاشرتهم .

(٤) ليكن إغتفارك ما تفتقره الناس وما تصفح عنه أشبه بالنسيان منه بالإغتفار، لأنه إذا لم يكن كذلك كان الإغتفار أشبه بالمنّ عليهم والإمتداء الذي يكرهونه، وقد يمقتونك من أجله .

(٥) لا تتوقع أن تسمع من كل إنسان شرحاً مقنعاً لأسباب سلوكه، لأنه كثيراً ما يجهل من أمرها أو يتناساها ولو أن أثرها موجود في نفسه . وكثيراً ما يتقدم المرء للسامع بالأسباب التي يظن أنها راجحة محبوبة عند سامعه وإن لم تكن أسباب سلوكه الحقيقية أو أهمها، وإنما يفعل ذلك تقرباً اليه ورغبة في نيل التزكية منه فتتم تلك الأسباب التي يفسر بها سلوكه عن رأيه في خصال سامعه الذي يزكي نفسه لديه وتغشى رأيه المستتر فيه .

(٦) من الصعب الحكم على أسباب الخصومة لأن ظروفها الغريبة قد لا تكون ذات صلة بالأسباب الحقيقية ، كما أن مكان المعركة قد لا يكون سبب حدوثها، وكثيراً ما تختفي الخصومة كاختفاء الماء الذي يجري في بطن الأرض ويخرج في مكان سحيق بعد ان تعتوره أحوال عديدة ، ولا يدل مكان ظهوره على نشأته .

(٧) إذا تعودت الإستسلام لمن أنفسهم من ذوي الأثرة طلباً للراحة من عناد إلحاحهم، فإن ذلك كثيراً ما يؤدي إلى تضييع ما هو أمانة في عنقك من مصالح الناس عامة، وليس بعد تضييع الأمانة إلا إنكارها وإنتار تضييعها والامعان في الظلم وما يجره من الفساد والشرور وسخط الناس .

(٨) لا تجعل غضبك وإمتعاضك مقياساً لخطأ أحد الناس، فان الغضب والامتعاض قد لا يعادلان أساءته أو خطأه، وإذا تعودت ذلك تعودت الظلم وقلة الإنصاف ، لأن للنفس حالات تغضب فيها من الخطأ القليل ، غضباً أشد من غضبها من الخطأ الكثير في حالات

أخرى أو مع أناس آخرين.

(٩) كثيراً ما يهوى الناس مناقضة الصفات المعروفة في نفوسهم ومخالفتها، فترى الرجل الكثير التغاضب والشراسة يجنح في بعض الأحايين إلى اللطف والدعة والتسمح لكي يضلل الناس إذا أحس أنهم نظروا إلى شراسة خلقه.

(١٠) لو أعطي الإنسان القدرة على أن يتحول بالتمني وأن يكتسب به جمالاً لما تمنى إلا ما يجعله نسخة جميلة لشخصه قبل التمني، وكذلك لو استطاع أن يحول نفسه بالتمني فانه لا يتمنى لها إلا أن تكون نسخة جميلة من صورتها الأولى قبل التمني.

(١١) لو بحثنا ما يسميه الناس الثبات فاننا نجده في كثير من الأحوال الالتجاء الناشيء من حب الذات والاصرار الناتج منه فيتزين في رأي الناس بزي الثبات على المبدأ ويسمى باسمه.

(١٢) لو استطاع الساخط على إنسان أن يحس كأنه محام يدافع عن المغضوب عليه بأجر يرضيه، لدهش لكثرة الحجج التي يستطيع أن يدلي بها لصالحه، كي يثبت براءته أو عذره وكي يثبت إساءة نفسه في سخطه.

(١٣) إن سرورنا بمن نستطيع أن نغير رأيه أعظم من سرورنا بمن يوافقنا قبل الحاجة، وقد يعرف الماكر هذا الامر فيختلف معنا اختلافاً قليلاً ثم يعود فيظهر الاقتناع برأينا كي يسرنا سروراً يدفعنا إلى قضاء حوائجه.

(١٤) إذا استسلمت إلى سوء الظن وجدت غذاءه كافياً لسوء ظنك بزكيه، كما أن أذن المؤرق اليقظان يترعى انتباهها في سكون الليل كل صوت خافت.

(١٥) إن الناس يلجأون إلى الغش ويعدونه أسهل الوسائل وأقربها مع أن صاحب الغش لابد أن يكون ذا نفس بقظى وعينين متيقظتين وأذنين ساهرتين لكل أمر، كي لا ينكشف غشه فهو في أشق الامور، وأسهل منه الصدق في المعاملة فلا يحتاج الصادق إلى تنبه جوارحه لمغبة كذبه.

(١٦) إن الناس يمتدون النصيحة التي ينصحهم بها غيرهم كالضرائب المباشرة المفروضة عليهم كلما إزدادت إزداد مقت الناس لها. ولهذا يلتجيء المرء إلى طلب النصيحة من غيره إلا إذا أراد تزكية ومدحاً منه لعمله أو قوله أو فكره. وإذا ظن أن في النصيحة من غيره فائدة لغيره شك فيها وتجنبها حتى ولو كانت فيها فائدة، لنفسه. وأصبح النصح أن تنصح الناس بعمل ما لا يستطيعه.

(١٧) إن ذا الحاجة إذا طلب منك مالاً وكانت في نواك له كلة يصح أن تحمل على محمل الوعد وأن تؤول إليه وأن تفسر به فإنها تكبر في ذهنه بالأمل حتى تصير كالجني المارد الذي خرج من التنعم في قمقم الذل ويقاضيك إياها ويعدك حانثاً كاذباً قليل الوفاء كثير الغدر .

(١٨) من الأمور المضحكة المعتادة أن ترى انساناً يلح على آخر كي يقبل منه عطاء أو هدية أو معروفاً وصاحب العطاء أو المعروف في سريرة نفسه لا يريد من الآخر أن يقبل معروفه أو هديته أو عطاءه ، بينما نرى الآخر يقبل العطاء متضايقاً من إلحاح الأول ويتمنى أن يجرح احساس ذلك الملح إذا رفض عطاءه أو معروفه ، وهو بقبوله المعروف يزداد مقتاً في سريرة الأول .

(١٩) قد يكون غضب انسان منك ناشئاً من غضبه على نفسه بسبب استسلامه الى هذا الغضب وعدم قدرته على كبحه وفلا تضيرك لهذه الحالات النفسية منه .

(٢٠) إن الأمور النبيلة الجليلة إذا تأملها المرء طويلاً بأناة ولم يتأمل غيرها فانها قد تجعله غير قادر على تبين الأمور والحكم عليها حكماً صحيحاً ، ومثله مثل من ينظر الى الشمس المتوهجة مدة طويلة حتى لا يستطيع أن يميز الأشياء .

(٢١) كما انه من الصحيح في العلوم الرياضية إن يقال إن النقطة الواحدة لا تعين اتجاه خط مستقيم وهي أحرى أن لا تعين اتجاه الخط المعوج . كذلك لا تستطيع أن تحكم بعمل واحد بعمله المرء على خلقه بوجه عام . فان خلق الانسان حتى من كان ساذجاً كثير الاعوجاج . ومع ذلك يسرع الناس إلى الحكم على أخلاق إنسان بعمل واحد من أعماله .

(٢٢) إن من اتقان النفاق والخداع أن يكون صاحبهما عادلاً مستقيماً صريحاً شريفاً في الأمور التي لا تعنيه ولا تعوق عن مطلبه ، ومن أجل ذلك صار الخادع الماهر لا يستخدم خداعه ونفاقه في كل أمر .

(٢٣) يقال في علم الطبيعة إن اعتراض نوعين خاصين من الأشعة ، قد يحدث ظلاماً في نظرك وكذلك اجتماع الحجج المتخالفة في القضية للأمر وضده قد يحدث ارتباكاً وظلاماً فلا تستبين الأمور إلا إذا بحثت كلاً منها على حدة .

(٢٤) كثيراً ما ينسب الى الرجل الجاهل أكثر الرذائل أو الفضائل لأن الجهل يبعثه الى سوء الظن وإلى القسوة وحب الأذى وكره الفكر والمفكرين كما انه قد يتبع قدوة الناس من غير تفكير فيضل إذا ضلوا ويصيب إذا أصابوا في عمل الخير ، وهو في هذه الحالة الثانية يكون محموداً من ذوي الفضل والفضائل .